دور الحوار والتسامح في تعزيز التعايش السلمي في المجتمع

د. مهدي أمين الستوني

جامعة سوران - كلية القانون والعلوم

السياسية والإدارة

قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية

(مُلخَصُ البَحْث)

يعد الحوار والتسامح والتعايش السلمي من المواضيع الرئيسية اليوم، بل أصبحوا من أكثر المواضيع الفكرية الملحة للنقاش والتداول في العالم؛ بسبب ما تعانيه المجتمعات من نزاعات وصراعات نشأت معظمها من التطرف المذهبي، والتمييز الإثني، وطائفي، ولغوي، وديني، إذ أصبحت هذه النزاعات هي السبب الرئيس لما تتعرض له المجتمعات في الشرق الأوسط من إبادة جماعية وهناك الكثير من الأمثلة التي تؤكد هذه النظرية. لكن إذا استطعنا تفعيل الحوار والتسامح في مجتمعاتنا نستطيع التغلب على النزاعات سالفة الذكر في مجتمعاتنا، ونحقق التعايش السلمي، ونعيش في وئام. تسلط هذه الدراسة الضوء على ظاهرة الحوار والتسامح والدور الذي تؤديه هذه الظواهر في تعزيز التعايش السلمي في مجتمعاتنا، وتقوم بدراسة الآليات والعوامل التي تساعد في تعزيز ثقافة التعايش السلمي ونشرها للوصول إلى مجتمع بعيد عن النزاعات وبناء مجتمع على أساس المواطنة وثقافة قبول الآخر.

الكلمات الدالة: الحوار الثقافي، التسامح، التعايش السلمي.

مقدمة

لا يخفى على أحد أن فكرة التعايش ظهرت مع تكوين المجتمعات، قامت على أساس التشابه بين أفرادها، وكلما اتسع نطاق التكتل البشري ضعف عنصر التشابه بين أفرادها ومعه زادت ضرورة التعايش، وإذا كان هذا التعايش في مدلوله اللغوي العام يعني أن يعيش بعضنا مع بعضنا الآخر، فإنه في مفهومه الاصطلاحي المعاصر، يقصد أن تكون هذه العيشة المتبادلة قائمة على المسألة والمهادنة. ومن هنا جاء مصطلح التعايش السلمي، والمتأمل في مصطلح التعايش السلمي من حيث عمق دلالاته، وحتى من حيث صرفه وتركيبه في مختلف اللغات، ينتهي إلى أنه يعكس وضعية تتأرجح بين السلم من معناه الواضح الصريح وبين الحرب في مدلولها القديم المتعارف عليه.

إشكالية الدراسة: تمحورت إشكالية الدراسة حول تحديد مفهوم الحوار، والتسامح، والتعايش السلمي لغة واصطلاحاً، وتحديد أنواع كل منها، والتحقق من وجود هذه المبادئ التي أصبح وجودها ضرورياً في بناء مجتمع مثالي.

فرضية الدراسة: لحل الإشكالية التي تتمحور حولها هذه الدراسة، فإننا نفترض: أولاً: إن متطلبات المرحلة التاريخية التي تمر بها البشرية اليوم، تستدعي على أن الخير والسعادة، والتنمية الحضارية، التي ينشدها البشر لا تتأتى إلا في ظل التعايش السلمي والوثام التام بين أطراف المجتمع كافة.

ثانياً: إن التسامح يعني القبول بوجود الآخر المختلف، والاعتراف به، واحترام اختلافه، أي كان موضوعه أو نوعه أو درجته، وإن للتسامح أنواعاً مختلفة عرفتها المجتمعات والحضارات القديمة كفكرة وممارسة على الرغم من خلوها من مفردة التسامح .

منهج الدراسة: اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي لمعرفة مفهوم الحوار، والتسامح وأنواعه، والمدخل التاريخي لمعرفة نوع التسامح في الحضارات القديمة.

هيكلية الدراسة: للتحقق من صحة فرضية الدراسة، فقد تم تقسيمها إلى ثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول يسلط الضوء على مدخل مفاهيمي لمفاهيم الدراسة، والمبحث الثاني يتحدث عن دور الحوار والتسامح في تعزيز التعايش السلمي في المجتمع. والمبحث الثالث عن دور ثقافة التسامح في تعزيز التعايش السلمي في المجتمع:

١. مدخل مفاهيمي أولي.

١.١ مفهوم الحوار لغةً واصطلاحاً

يحمل مصطلح (الحوار) دلالات عدة، ففي الجذر اللغوي له: (حَوْرَ) يشير إلى معانٍ ن، منها: قال ابن منظور في لسان العرب: "الْحَوْرُ: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وهم يتحاورون: أي يتراجعون بالكلام (الأنصاري، ٢٠٠٦). وتعود أصل كلمة الحوار إلى (الحَوْر) وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يقال: (حار بعدما كار)، والحَوْرُ النقصان بعد الزيادة لأنه رجوع من حال إلى حال، وفي الحديث الشريف: (نعوذ بالله من الحور بعد الكور) (الحسين ١٩٩١) ... معناه من (النقصان بعد الزيادة)، التحاور: التجاوب، تقول: كلمته فما حار إلي جواباً، أي: ما رد جواباً (الأنصاري، ٢٠٠٦)، قال تعالى (إنه ظن أن لن يحور) (سورة الانشقاق: ١٤)، أي: لن يرجع، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة (الأنصاري، ٢٠٠٦). وفي القاموس المحيط (تحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم) (الفيروزآبادي، ٢٠٠٨)، (أحمد، ٢٠٠٤).

أما في تاج العروس : فيقصد بالمحاورة (المجاوبة ومراجعة النطق والكلام في المخاطبة) (الزبيدي، ١٤١٤هـ). لذا نستطيع القول إن الحوار في المصطلح اللغوي (هو نشاط عقلي ولفظي يقدم المتحاورن فيه الأدلة والحجج والبراهين التي تبرر وجهات نظرهم بحرية تامة من أجل الوصول إلى حل لمشكلة أو توضيح لقضية ما) (نصر، ١٢٧٠هـجري). إذاً فالحوار هو تراجع الكلام والتجاوب فيه. وهذا يتطلب ممن يتصدى للحوار أن يكون مستعداً لتقبل الرأي الآخر إذا كانت البراهين والحجج تسانده، فلا يكون حواراً يتمسك فيه كل طرف برأيه ولا يحدد عنه.

في الاصطلاح: الحوار هو "محادثة بين شخصين أو فريقين حول موضوع محدد لكل منهما وجهة نظر بعيدا عن الخصومة أو التعصب بطريق يعتمد على العلم والعقل مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة ولو ظهرت على يد الطرف الآخر". (عجك، ٢٠٠٧)، وقد عرفه بعضهم بأنه نوع في الحديث بين شخصين، أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما من دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء، والبعد عن الخصومة والتعصب، وهو ضرب من الأدب الرفيع وأسلوب من أساليبه (زمزمي، ١٩٩٤). ومع ذلك: فإن استعمال مصطلح الحوار وتداوله في الأدبيات المعاصرة لم يبتعد كثيراً عن مفهومه اللغوي، إذ نجد أن: "الحوار هو المراجعة في الكلام، أو الأخذ والرد بين شخصين أو طرفين، لكل منهما مفاهيمه وأفكاره وآراؤه ومقترحاته، وتجاذب أطراف الحديث بين شخصين أو أكثر يُهدف منه الوصول إلى لغة مشتركة ومفاهيم متقاربة وتشخيص موحد، إن أمكن، للأشياء كلها، وللمشكلات كافة" (السحمراني، ٢٠١٩). هناك فرق بين الحوار والجدال هو أن الجدل شدة في الكلام، مع التمسك بالرأي والتعصب له، وأما الحوار فهو مجرد مراجعة الكلام بين الطرفين من دون وجود خصومة بالضرورة، بل الغالب عليه الهدوء والبعد عن التعصب، وفرق بين الحوار والمناظرة بأن المناظرة تدل على النظر والتفكير، والحوار يدل على مراجعة الكلام وتداوله (زمزمي، ١٩٩٤).

الحوار على وفق ما تقدم ذكره، له أصل ثابت في منهاج الله تعالى قرآناً وسنةً، وهو ينبثق من تأثيرات وأحاسيس تجيش في النفس لإظهار مبدأ، أو تصحيح خطأ، أو نصرة حق، أو غير ذلك مما جبلت عليه النفوس البشرية، والمحاورة والمناظرة والجدل ألقاظ قريبة من بعضها، إلا إن مصطلح الحوار يفوقها دلالة، كما إن الحوار يعد من أهم وسائل التفاهم بين الناس، وهو من أهم وسائل المعرفة والإقناع بين مختلف الثقافات والتوجهات (علي، ٢٠٢٠).

من هذه التعريفات يمكننا القول إن مفهوم الحوار هو: تبادل الآراء والأفكار بين طرفين أو أكثر حول موضوع معين، إذ يكون الطرفان متكافئين وبعيدين عن التعصب؛ للتوصل إلى مفاهيم مشتركة أو متقاربة.

١.٢ مفهوم التسامح لغةً واصطلاحاً

التسامح لغة: مشتق من السماحة ويقال: اسمح وسامح أي وافقني على المطلوب، والمسامحة: المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا، السماح رباح أي المساهلة في الأشياء تريح صاحبها، وسُمح أي: جاد بما لديه (الأنصاري، ٢٠٠٦). ومادة (سمح) تدل على سلاسة وسهولة. والمسامحة: المساهلة، وسمح بكذا يسمح سُموحًا وسماحة: جاد وأعطى، أو وافق على ما أريد منه (العربية، ١٩٨٩). ويأتي السماح في قاموس المنجد بمعنى الجود والكرم والتساهل، فسمح: وسماحة العود بمعنى سهل ولان، وسامح في الأمر سهله سماحا، ولاينه، ووافقته على مطلوبه، وتسامح: تساهل، والتسامح التساهل (معلوف، ٢٠٢٣ هـ) وبما أن الدلالة اللغوية لمفهوم التسامح تستنبط المنة والكرم، وتشير إلى وجود فارق أخلاقي بين التسامح (بالكسر) والتسامح معه (بالفتح)، فليس هناك مساواة بين الطرفين، وإنما يد عليا واهبة، ويد سفلى متلقية، وهو مقتضى المنة والكرم دائما (دواح، ٢٠١٩). وهذا يعني أن كلمة التسامح لا تحمل في اللغة العربية شيئا من المعاني اللغوية الغربية ولا الاصطلاحية الحديثة للتسامح؛ لأنها لا تنطلق في دلالتها هذه من مبدأ المساواة الذي يعد شرطاً في الدلالة الحديثة للتسامح (وظفة، ٢٠٠٥).

التسامح اصطلاحاً: على الرغم من اختلاف المفهوم اللغوي للتسامح عربياً وغربياً، إلا أن الكثير من الباحثين والكتاب العرب المعاصرين حرصوا على عدم الارتهان بمعانيه ودلالاته اللغوية العربية محاولين أن يواكبوا في ذلك الرؤية الغربية التي تجاوزت المعنى اللغوي الأصلي للكلمة، والاعتراف بأنها تطورت وأصبحت تتضمن اصطلاحياً عنصرين أساسيين يتقاعلان: الحق والواجب، حق الفرد أو الجماعة في الاختلاف من جهة، وواجب الفرد أو الجماعة في احترام حق الغير في الاختلاف من جهة أخرى (النداوي، ٢٠٠٨). ظهر مفهوم التسامح في نهايات القرن السادس عشر الميلادي في الغرب بعدما شهد الناس ويلات الحروب الدينية المتلاحقة في وسط أوروبا. وأصبح التسامح منذ القرن السابع عشر محل دراسة وبحث، ولا يخفى أثر تحرر الفكر من سلطة الكنيسة في أوروبا في نشوء مفهوم التسامح. وهو يعني القدرة على احترام الاختلاف مما يؤدي إلى إمكان ممارسة الأفراد والجماعات للعلاقات في جو من المساواة، وينطوي هذا المعنى على كون المتسامح فيه غير

مقبول عند المتسامح من حيث الأصل؛ لأن قبول الإنسان بشيء يستدعي إنشاءه واجبات للغير عليه، وقبوله بحقوق الغير (الدين، ٢٠٠٩)،

يحدد محمد عابد الجابري المعنى الاصطلاحي الحديث للتسامح بأنه يعني: لا أن يتخلى المرء عن قناعاته، ولا أن يكف عن إظهارها والدفاع عنها والدعوة لها، بل يعني الامتناع عن استعمال أية وسيلة من وسائل العنف والتجريح وبكلمة

واحدة: احترام الآراء وليس فرضها (الجابري، ١٩٩٧)، أي أن التسامح يعني: احترام الحق في الاختلاف، والحق في التعبير الديمقراطي، ويعني القدرة على تحمل الرأي الآخر والصبر على أشياء لا يحبها الإنسان ولا يرغب فيها بل يعدها ذلك دلالة التسامح اصطلاحيا أحيانا مناقضة لمنظومته الفكرية والأخلاقية. ويعني التسامح أيضا: أن نحن والآخرون على الرغم من اختلافاتنا في عالم واحد يضمننا، ويتجلى ذلك في الاستعداد لتقبل وجهات النظر المختلفة فيما يتعلق باختلافات السلوك والرأي من دون الموافقة عليها (النداوي، ٢٠٠٨). عليه فإن التسامح يعني قبول التنوع الثري لثقافات عالمنا وأنماطه التعبيرية المختلفة، وطرائق تحقيق كينونتنا الإنسانية، واحترامها، وتقديرها، فهو تناسق في الاختلاف، وهو ليس واجبا أخلاقيا فقط بل واجبا سياسيا وحقوقيا أيضا، وهو فضيلة تعمل على إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب، وهو ليس مجرد إقرار ولا مجرد تنازل أو تجاوز بل هو موقف فاعل مدعوم بالاعتراف بحقوق العالمية للإنسان والحريات الأساسية للآخرين (علي ي.، ٢٠٠٦). وبذلك يبني التسامح على قاعدة (عش ودع الآخرين يعيشون) عن طريق تشكيل جماعات منفصلة في المجتمع، يستطيع الناس أن يمارسوا فيها اعتقاداتهم وإساليبهم المتنوعة في الحياة ليس فقط بعدم التدخل في شؤونهم وممارستهم الدينية المختلفة، بل لا بد من فهم آرائهم واحترامها. ويحتاج المجتمع المدني إلى التسامح والاحترام المتبادل؛ لأن التسامح فضيلة مدنية على درجة عالية من الأهمية (ديلو، ٢٠٠٨). لذا فالتسامح هو احترام الموقف المخالف. والتسامح له دور مهم في تحقيق وحدة المجتمع وتضامنه، وتماسكه، والقضاء على الخلافات والصراعات بين الأفراد والجماعات، والتسامح يعني احترام ثقافة الآخرين وعقيدتهم وقيمهم، وهو ركيزة أساسية لتعزيز حقوق الإنسان، والتعايش السلمي، والديمقراطية، والعدل، والمساواة، والحريات العامة للإنسان في المجتمعات.

١.٣ مفهوم التعايش السلمي:

التعايش لغة: "يرد في معاجم اللغة العربية كلمة عيش: العيش، أي الحياة، وعيش، والعيشة ضرب من العيش، يقال: عاش عيشة، وعيشة أو معاشا عاش يعيش عيشا صدق

وعيشة سوء، والمعيشة ما يعاش به، والعيش: المطعم والمشرب وما تكون به الحياة، قال الجواهري: كل واحد من قوله معاشا ومعيشا يصلح أن يكون مصدرا وأن يكون اسما (الأنصاري، ٢٠٠٦). وجاء في المعجم الوسيط مادة (عيش) "عَاشَهُ: عاش معه، عَيْشَهُ: أعاشه، وتَعَاشُوا: عاشوا على الآلفة والمؤدّة ومنه التعايش السِّلْمِيّ، والعيش معناه الحياة، وما تكون به الحياة من المطعم" (العربية، ١٩٨٩). وجاء في معجم القاموس المحيط في مادة (عاش) عاشَ يَعِيشُ، عِشَ، عَيْشًا وَعَيْشَةً، فهو عَائِشٌ - عاش الشَّخْصُ كان ذا حياة - عاش عَيْشَةً راضية/ في سلام/ أيامًا سعيدة، - ما استحقّ أن يولد من عاش لنفسه فقط، - سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حَوْلًا، - لا أبا لك، - يسأم: - عاش الأحداث: عاصرها، أدركها، - عاش حياته بالطول والعرض: بجميع الأشكال والصور، - عاش عائلةً على غيره: عاش يعتمد على غيره فيما يحتاج إليه من طعام وكساء وغيرها متطفلاً عليهم، - عاش في الظلّ/ عاش بعيدًا عن الأضواء: عاش بعيدًا عن الناس منعزلاً، - عاش لمبادئه: كرّس حياته لها (الفيروزآبادي، ٢٠٠٨).

التعايش إصطلاحاً: لا يخفى على أحد أن فكرة التعايش ظهرت مع تكوين المجتمعات، وقامت على أساس التشابه بين أفرادها، وكلما اتسع نطاق التكتل البشري ضعف عنصر التشابه بين أفرادها ومعه زادت ضرورة التعايش، وإذا كان هذا التعايش في مدلوله اللغوي العام يعني أن يعيش بعضنا مع بعضنا الآخر، فإنه في مفهومه الاصطلاحي المعاصر، يقصد أن تكون هذه العيشة المتبادلة قائمة على المسألة والمهادنة (رشيد، ٢٠٢٠). ومن هنا جاء مصطلح التعايش السلمي، والمتأمل في مصطلح التعايش السلمي من حيث عمق دلالاته، وحتى من حيث صرفه وتركيبه في مختلف اللغات، ينتهي إلى أنه يعكس وضعية تتأرجح بين السلم من معناه الواضح الصريح وبين الحرب في مدلولها القديم المتعارف عليه (رشيد، ٢٠٢٠).

من المؤسف أن الأدبيات التي تتحدث عن التعايش الاجتماعي قليلة، بالمقارنة مع أدبيات الصراع، وجاءت أدبيات التعايش كرد فعل على الصراعات والحروب، ضرورة للتفتيش عن صيغة للعيش السلمي المشترك، وساد الاعتقاد في الفكر الغربي أن الحرب هي القاعدة، والتعايش السلمي حالة استثنائية بين البشر! لذلك معظم الأدبيات عن التعايش تمت صياغتها على وفق فهم الفلسفة الغربية لمفهوم التعايش السلمي. (علي، ٢٠٢٠)

ومن معاني التعايش الاصطلاحية يمكن القول: إن التعايش هو التفاهم العفوي بين مختلف مكونات المجتمع لقبول كل منهما الآخر شريكا في الوطن والمصير مع وجود ضمان (قانوني أو عرفي) على ألا يتأثر هذا التعايش حال الاختلاف بحالة عميقة من

التوتر والتربص المتبادل. لهذا يمكن الالتزام بالنتيجة الطبيعية لغاية التعايش. و القول: إن التعايش المستدام هو ذلك التعايش القائم على مرونة تبادل المصالح، ومفاهيم المسالمة بين مكونات المجتمع الواحد (الشهري، ٢٠١٦). و(السمة الرئيسية في تعريف كلمة (التعايش) هو علاقتها بكلمة (الآخرين) والاعتراف بأن (الآخرين) موجودون ، التعايش يعني التعلم للعيش المشترك، والقبول بالتنوع، بما يضمن وجود علاقة ايجابية مع الآخر. فعندما تكون العلاقة ايجابية وعلى قدم المساواة معه فإن ذلك سوف يعزز الكرامة والحرية والاستقلال، وعندما تكون العلاقات سلبية ومدمرة فإن ذلك سيقوض الكرامة الإنسانية وقيمتها الذاتية (جبر، ٢٠١٦)).

ولا بد من القول: إن التعايش يحمل مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية تهدف جميعها إلى إيجاد بيئة ملائمة لإسعاد المجتمع البشري، (شيخو، ٢٠٢٠) وفي هذا المنطلق قال ابن خلدون " أن الاجتماع الإنساني ضروري" (خلدون، ١٩٨٧) لهذا ارتبط مفهوم التعايش بمفاهيم وقيم إنسانية عدة كالتسامح، والاعتراف بالآخر، والتعدد والتنوع. وقد عدت هذه القيم والمبادئ هي الأسس المهمة لبناء التعايش وقد اهتم العالم ومنظماته الدولية بها، وعمل على التأكيد عليها، وإشاعتها لإيجاد بيئة يسودها السلام محليا وعالميا، وخصصت لها ايام للاحتفاء والاحتفال بها ،مثل: يوم التسامح العالمي (١٦ تشرين الثاني) ويوم التنوع الثقافي الذي خصص له يوم عالمي هو (٢١ مايس) (جبر، ٢٠١٦). يقول أنطونيو تشايز في هذا الصدد: التعايش يعني " مجتمعات متكاملة يعيش فيها الناس من مختلف الأعراق و الأجناس والأديان منسجمين مع بعضهم بعضا، ولا يتطلب ذلك أي شئ للتعايش سوى أن يعيش أعضاء تلك الجماعات معا من دون أن يقتل الآخر" (تشايز، ٢٠٠٦).

٢. دور الحوار والتسامح في تعزيز التعايش السلمي في المجتمع:

الحوار وسيلة تفاعلية حيوية رافقت الإنسان المتحضر وهو يبني حضارة العالم الذي نعيشه، لإيمانه أن القطيعة والصدود وهما يناقضان الحوار، لن يزيدا الحياة إلا فشلاً وتعقيداً وهو بذرة لنماء الحياة في كل مجالاتها: الفكرية والدينية والسياسية، إذ يعد وسيلة لقهر التسلط والاستبداد الفكري والسياسي، ووسيلة لنبذ التعصب والإنغلاق، وتجنب العنف والإرهاب بكل ألوانه. (الزبيدي، ٢٠١٨) إن جميع الأديان السماوية تهدف إلى إصلاح النفوس، وإفراغها من الكراهية والعنصرية والتعصب، وتهدف إلى زرع بذور التسامح، والإيثار، والتعايش السلمي المبني على الاحترام المتبادل ولكن ظهور أيديولوجيات حديثة حاولت ولمصالحها الخاصة أن تفرغ الأديان من محتواها الجوهرية مستغلة ضعف الثقافة في بعض المجتمعات مما أدت

إلى حدوث خلافات كبيرة، وظهور حالات التعصب، ورفض الآخر، وتنامي علاقات التشنّج، والتي وصلت في كثير من الأحيان إلى نشوب حروب عديدة أحرقت الأخضر واليابس، وراحت بسببها آلاف الأرواح البريئة (الطائي، ٢٠٢٠). ونتج عن العولمة زيادة في نقاط التفاعل والاحتكاك بين الثقافات أدت إلى توترات وصدّامات ومطالبات تتعلق بالهوية، مما جعل أهمية الحوار بين الثقافات والأديان تزداد، بوصفه أداة تسهم في نشر الوعي السليم للحد من تداعيات هذه الصراعات والتوترات التي تهدد استقرار المجتمعات البشرية، وتؤجج الأزمات الإقليمية والدولية، وتخلّ بالسلام العالمي، وتؤثر سلباً على تقدم الشعوب (السموني، ٢٠٢٠). سنعرض في هذا المبحث أهمية دور الحوار والتسامح في تعزيز التعايش السلمي في المجتمع وعلى النحو الآتي أولاً: أهمية الحوار وعلاقته بالتعايش السلمي. ثانياً: معوقات نشر ثقافة الحوار في المجتمع. وأخيراً سنلقي الضوء على خصائص ثقافة التسامح، ومن ثم العوامل التي تدفع بالتسامح إلى تعزيز التعايش السلمي في المجتمع.

٢.١ أهمية الحوار وعلاقته بالتعايش السلمي

يقول ابن خلدون في مقدمته «إن الإنسان اجتماعي بطبعه. وهذا يعني أن الإنسان فطر على العيش مع الجماعة والتعامل مع الآخرين فهو لا يقدر على العيش وحيداً بمعزل عنهم مهما توفرت له سبل الراحة والرفاهية» (خلدون، ١٩٨٧). ونتيجة لهذا الإحساس بضرورة التلاقي والتواصل والتحاوّر بين شعوب العالم المختلفة عقدت على مدى العقود الخمسة الأخيرة من القرن الماضي عدد من اللقاءات والمؤتمرات والندوات العلمية والثقافية من أجل تحقيق أرضية مشتركة للتعاون والحوار بين الأديان والحضارات، وإن ذلك يمثل أرقى صيغ الحوار مع (الآخر) في عصر المدنية والتحضّر (الداغر، ٢٠١٣).

لعل من أهم التحديات التي تواجه المجتمعات الإنسانية اليوم هي: كيفية التعامل مع الاختلاف الثقافي والديني والعرقي. ومع تزايد وتيرة التحريض على العنف وارتكاب الفظائع تحت مسوغات دينية وعرقية، أصبح موضوع إدارة التنوع، عبر صناعة التعايش داخل المجتمع الواحد أو بين المجتمعات الإنسانية، أمراً في غاية الأهمية، ليس فقط لأصحاب القرار السياسي، بل لأفراد المجتمع كافة (معمر، ٢٠١٧). ومن هذا المنطلق أصبح مفهوم التعايش أحد المفاهيم المحورية الهادفة لإدارة التنوع في المجتمعات الإنسانية بشكل سليم، وتحويله إلى قوة دفع؛ لتعزيز التماسك المجتمعي، وتحقيق السلام بين شعوب العالم؛ لأن التعايش ضرورة مطلقة لتسوية العلاقات الإنسانية، في المجتمعات والأديان والأوطان، لم يعد منها مفر؛ إذ إن البديل للتعايش هو، بالضرورة، الإقصاء والإلغاء وما يترتب عليهما من عنف و فوضى، وعنّف مضاد (معمر، ٢٠١٧).

إن الحوار المجدي هو الذي يقوم على العلم ، فالجهل لا يكون معه حوار بل تعصب، كما أن الحوار يحتاج منهجاً يعتمد عليه، إذ إن الفوضى في تبادل الحوار من دون تحديد المنطلقات، ومن دون تحديد مقاصد الحوار وغاياته، وتحديد موضوع الحوار . كما أن الحوار لا يجدي إن كان من طرف واحد وبلا ضوابط، أو أن يكون مقرونا باللبس، وعدم الوضوح، والشفافية في الطرح، فهو بذلك يكون حوار مجموعة أشخاص أصيبوا بالصمم، ومثل هذا الحوار لن يكون له تأثير، ولا ثمار تجنى من ورائه (السحمراني، ١٩٩٤).

إن الحوار ظاهرة إنسانية مرتبطة بوحى العقل والهامة، وراجعة في نشأتها إلى طبيعة الإنسان المفكرة الناطقة، فهو يؤمن بفكرة معينة فيعرضها، ويوضح أهدافها، ويدافع عنها، فإذا خالفه في الرأي أحد استجمع أفكاره وقدمها عن طريق حوار يبعث على إشغال الذهن، وإعمال الفكر ليضيف إلى عقولنا معلومات جديدة، وليفتح أمام أهل العلم آفاقاً واسعة في المعرفة، وإذا أردنا للحوار أن يبقى عذباً رقيقاً بعيداً عن التنكيل والمهاترة، فلا بد أن يرتبط بمجموعة من الآداب والأخلاق النبيلة منها : عفة اللسان والقلم ، وحسن الصمت والإصغاء، واحترام شخصية المحاور ، والحوار الهادئ، والحوار بمودة واحترام مع الآخرين (القوسي، ٢٠٠٨). فضلا عن كل هذا هناك محددات ينبغي توافرها للحوار مع الآخر حتى تؤتي ثمارها: (الداغر، ٢٠١٣)

١. أن يكون الحوار متكافئاً، تتوافر فيه شروط المساواة والإرادة المشتركة، إذ تتعدد مستوياته ليكون حواراً شاملاً يدور مع مختلف الشرائح والفئات سواء على المستوى الحكومي أو على مستوى المؤسسات الأهلية والدولية التي لها علاقة بأمن الشعوب واستقرارها وتعاونها.

٢. أن يهدف الحوار إلى تحقيق المصالح المشتركة للطرفين التي لها علاقة بالتقدم العلمي في مجالات الحياة الفكرية والثقافية والاقتصادية ورفاهية البشر وتحسين مستواهم الاقتصادي كافة.

٣. أن يكون الحوار متحضراً و مترفعاً عن الموضوعات التي تتعلق بالخصومية العقائدية والأخلاقية للأمم والشعوب التي من شأنها إذا أثرت أن تؤدي إلى إيقاف الحوار أو عدم فاعليته.

٤. أن يكون الحوار معداً على وفق برامج مسبقة، ويكون الغرض منه التواصل والتفاهم لتحقيق التفاعل الحضاري، بعيداً عن فكرة التصارع والتنازع بين الحضارات والثقافات المختلفة.

وأخيراً نستطيع القول إن من أهم القيم الداعمة لمبدأ التعايش، هي قيمة الحوار؛ لأن الحوار هو عنوان التعايش والتعبير الأسمى عن دلالاته؛ بل يمكننا القول إن التعايش، في حقيقته، إنما هو أشكال متعددة من الحوار، ناطقة وصامتة. كما أن الحوار هو النشاط الفكري الأول في مسيرة المجتمع نحو التعايش، وعن طريق الحوار يمكننا استطلاع آراء المتحاورين، وتقييمها وتطويرها باستمرار عبر الفكر والرأي والرأي الآخر. وإن العلاقة بين الحوار والتعايش علاقة شرطية يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر بالضرورة (معمر، ٢٠١٧).

٣. دور ثقافة التسامح في تعزيز التعايش السلمي في المجتمع:

يُعدّ مفهوم التسامح اليوم مقوماً من مقومات الحداثة السياسيّة والاجتماعيّة؛ لقدرتة على حل الإشكالات الناتجة عن التعددية داخل المجتمع الواحد وبين المجتمعات. فهو البديل العادل للتعصّب ورفض حق الآخر في الاختلاف، والسبيل الوحيد لتعايش سلمي قائم على الاستواء في الحقوق بين مختلف مكونات المجتمع. ولئن اكتسب هذا المفهوم اليوم جملة من الخصوصيّات الدلاليّة المقترنة بقضايا التحديث في مختلف مستوياته، ولاسيما بقضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان، إذ لم يكن غائبا عن أفق التفكير والممارسة السياسية في القديم بما هو قيمة أخلاقية وسياسية مقترنة بقيمة العدل ومحددة للتعامل السلمي داخل المجتمع (الوريّمي، ٢٠١٦).

يعد سلوك التسامح مع الآخر من أهم المطالب الإنسانية في العصر الحديث، ولاسيما في المجتمعات ذات الهويات المختلفة، وذلك لما يحمله التسامح من مزايا وخصائص اجتماعية وحضارية، تضمن للمجتمع التقدم والنمو في ظل التعددية الثقافية، بل تجعل من التعددية نقطة قوة تثري التجربة الإنسانية، وتوسع من مداركه الفكرية وإسهاماته الحضارية (إبراهيم، ٢٠٢١).

ميز جون لوك في وقت مبكر بين نوعين من التسامح الذي تبناه ودعا إليه لأسباب دينية مذهبية بحكم ظروف واقعه المعاش، فهو لديه إما تسامح شكلي (مظهري) أو تسامح موضوعي (جوهرية)، والتسامح الشكلي لديه هو أن تترك المعتقدات والشعائر الدينية أو المذهبية الأخرى وشأنها، ونقيضه هو إرغام أصحاب تلك المعتقدات الأخرى (غير الدين أو المذهب الرسمي أو السائد) على الخضوع لهيئة دينية في الدولة أو الكنيسة، أما التسامح الموضوعي لديه فلا يقتصر على مجرد ترك الأديان والمذاهب الأخرى و عقائدها وشعائرها وشأنها، بل هو أساسا اعتراف ايجابي بأنها عقائد دينية أو مذهبية ممكنة لعبادة الله (لوك، ٢٠٠٦). ويقدم محمود حمدي زقزوق تصنيفا مماثلا لأنواع

التسامح من حيث طبيعته، لكنه يسميها التسامح السلبي والتسامح الإيجابي، إذ يبدو النوع الأول (التسامح السلبي) متطابقاً مع التسامح الشكلي (المظهري)، إذ لا ينشأ عن عقيدة حقيقية، بل تمليه، إن لم نقل تفرضه الظروف السياسية والاجتماعية التي تبين أن عدم التسامح سيؤدي إلى شرور كبيرة، فيكون التسامح هنا من المندوب لا من الواجب (لوك)، (٢٠٠٦). وبناءً على ما مضى، فالتسامح موقف إيجابي ومتفهم من العقائد والأفكار والممارسات، يسمح بتعايش الرؤى والاتجاهات المختلفة بأمن وسلام في مجتمع واحد (إبراهيم، ٢٠٢١).

يعد التسامح السياسي والفكري قيمة ضرورية للتعايش وتفاعل الجماعات المختلفة سياسياً وفكرياً، وهو ضروري للدولة التي يجب أن لا تقتصر هويتها على جنس أو دين أو عقيدة؛ لأن في ذلك إهداراً لقيمة المواطنة، ونزوعاً إلى التفرد والتسلط، فالتسامح السياسي يقوم على الإقرار بالمساواة بين المواطنين، وتمتعهم جميعاً بحقوق وحرّيات متساوية، ويعني ذلك عدم رفض الآخر وعدم تهميشه وعدم إقصائه؛ لأن السياسات والأفكار الأخرى المختلفة كلها تصب في الصالح العام، و تناهض الشمولية الاطلاقية، وتقر النسبية والتعددية، وحق الاختلاف (حافظ، ٢٠٠٩).

وقد تُصنّف ثقافة التسامح والقيم المتصلة بها ضمن القيم الأخلاقية المرتبطة بالضرورات الإنسانية لنبذ ما لدى البشر من استعداد للتآفر والعداء. ويتطلب تعزيز مفهوم التسامح الإنساني في المجتمع عدداً من التطبيقات العملية، منها: نبذ العنف والتجريح في الخطاب والسلوك حال التعامل مع الآخر (إبراهيم، ٢٠٢١). ويعد التسامح ضرورة وجودية وقيمة إنسانية تفرضها سنة الوجود المنطلقة (دواح، ٢٠١٩):

١. إن التنوع الإنساني سنة كونية كما في قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ولا يتحقق التعارف إلا بدلالة الحوار والالتقاء والتفاهم التي هي من شروط التسامح ومتطلباته .
٢. إن التنوع الديني، الثقافي.. المرتبط بالتنوع الإنساني، ينعكس على: الأمزجة، والميول، والمذاهب، والطموحات مما يؤدي إلى تمايز في المنطلقات الفكرية للبشر، وتغاير في الأنماط السلوكية.

وفي الختام نقول أن تطبيق مفهوم التسامح يضيء جواً من الأمن والطمأنينة على المجتمع، مما يسهم في زيادة الإبداع والتوسع في الإنتاج الحضاري. ويعتمد مفهوم التسامح الإنساني منظومة أخلاقية متكاملة، تحتوي على مجموعة من القيم الكونية؛ كقيمة التعايش، وقيمة تقبل الآخرين، وقيمة الاحترام المتبادل مع المختلف فكرياً وثقافياً في المجتمع.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج تتمثل بما يأتي:

لا يعني التسامح وفقاً للمفهوم الكلاسيكي التنازل عن الحق أو اللامبالاة، وعدم الاهتمام، واللين، والتساهل، بل أن مفهومه المعاصر يعني الاعتراف: بالآخر، وقبول تنوعه واختلافه (سياسياً، ودينياً، وقومياً، وفكرياً، وثقافياً، وحضارياً)؛ لأن الاختلاف سنة كونية عامة بحكم التنوع العالمي والإقليمي والوطني وهو سمة عامة تعيشها وتتعايش معها كل المجتمعات والدول فكل مجتمع وكل أمة وكل دولة لها: قيمها، وعاداتها، وتقاليدها، وثقافتها، وأهدافها الخاصة بها بما يجعل التسامح ليس مجرد حق لصاحبه بل واجباً عليه أيضاً لضمان التعايش السلمي والتفاعل الإيجابي بين الناس بما يتناسب ومبدأ النسبية وعدم وجود الأحادي والمطلق في كل ما هو إنساني واجتماعي.

إن الحوار وسيلة أساسية للتسامح فلا يمكن أن يكون هناك تسامح من دون وجود آلية للتفاهم وتبادل الآراء بما ينتهي: بالإقناع، والاقناع، وقبول الآخر، والاعتراف به أو بخصائصه المميزة، و لكن ليس بصورة دائمة فالحوار وسيلة لتحقيق التسامح لكنه لا ينتهي بالضرورة بتحقيق التسامح ما لم تتوفر المقومات اللازمة لذلك.

- تعد المجتمعات ذات التعددية الاجتماعية أكثر حاجة إلى التعايش السلمي لما يحققه لها من مزايا ومنافع تنعكس إيجاباً على عموم المجتمع.
- ضرورة اعتماد أسس وآليات صحيحة ملائمة ومنسجمة مع واقع المجتمع، لضمان نجاح تحقيق التعايش السلمي في سبيل إنجاز السلم الاجتماعي.
- الارتقاء بوعي مكونات المجتمع، عبر القنوات والوسائل المتعددة، وذلك عبر توعيتها بالأساليب الصحيحة للتنشئة الاجتماعية - السياسية، بما يجعلها أكثر وعياً ونضجاً واستيعاباً لمتغيرات الواقع الاجتماعي.
- تعزيز المواطنة مفهوماً وممارسة عبر تشريع قوانين وأنظمة مدعومة من الدولة.
- العمل على نشر ثقافة الحوار والتسامح في المجتمع بما يضمن العيش بسلام وأمان.

قائمة المصادر والمراجع

١. إبراهيم، ع. أ. (٢٠٢١). ثقافة التسامح وتقبل التعدد الثقافي.. وتطبيقاته في المجتمع. دار زايد للثقافة الإسلامية- Retrieved from <https://www.zhic.gov.ae/Articles/Promoting-A-Culture-of-Tolerance-and-Multiculturalism-In-Society>
٢. أحمد، إ. أ. ع. ع. م. (٢٠٠٤). المعجم الوسيط.
٣. الأنصاري، أ. م. (٢٠٠٦). لسان العرب (Vol). المجلد الثاني). بيروت: دار نوبليس.
٤. الجابري، م. ع. (١٩٩٧). قضايا في الفكر المعاصر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
٥. الحسين، م. ب. (١٩٩١). صحيح مسلم. بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
٦. الداغر، م. (٢٠١٣). دور وسائل الإعلام في نشر ثقافة الحوار وتعزيز التعايش مع الآخر لدى الشباب الجامعي.
٧. الدين، ب. ص. (٢٠٠٩). مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب، ورقة بحث مقدمة لمؤتمر التسامح الديني في الشريعة الإسلامية، ص ٤٤.
٨. الزبيدي، م. م. (١٤١٤هـ). تاج العروس. بيروت: دار الفكر.
٩. الزبيدي، ع. أ. (٢٠١٨). الحوار السياسي النبوي: شواهد وتطبيقات. جامعة بغداد / كلية العلوم السالمية Retrieved from <https://www.researchgate.net/publication/325193402>
١٠. السحمراني، أ. (١٩٩٤). الإعلام أولاً. دار النفائس.
١١. السحمراني، أ. (٢٠١٩). الحوار في الإسلام (آدابه وقواعده) . دار النفائس.
١٢. السموني، خ. أ. (٢٠٢٠). الحوار الثقافي وأثره على التماسك الاجتماعي. الجزيرة.
١٣. الشهري، ف. ب. (٢٠١٦). التعايش المجتمعي بين التحديات والفرص. التعايش المجتمعي وأثره في تعزيز اللحمة الوطنية. الرياض: مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني.
١٤. الطائي، أ. م. (٢٠٢٠). الحوار ودوره في ترسيخ أسس التعايش السلمي. مجلة البحوث التربوية والنفسية.
١٥. العربية، م. أ. (١٩٨٩). المعجم الوسيط (Vol). الطبعة الثالثة). القاهرة: دار الفكر.
١٦. الفيروزآبادي، م. أ. (٢٠٠٨). القاموس المحيط. القاهرة: دار الحديث القاهرة.
١٧. القوسي، م. (٢٠٠٨). ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي. مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.
١٨. الندوي، ح. ن. (٢٠٠٨). ، ثقافة التسامح وجدلية العلاقة بين الأنا والآخر. المجلة السياسية والدولية، العدد ٨، ص ١٤٤.
١٩. الوريثي، ن. (٢٠١٦). الاختلاف وسياسة التسامح. منشورات مؤسس سة «مؤمنون بلا حدود» للدراسات.
٢٠. جبر، ش. (٢٠١٦). التعايش في مجتمعات التنوع. الحوار المتمدن.
٢١. حافظ، ع. أ. (٢٠٠٩). التحول الديمقراطي في العراق الواقع..المستقبل. القاهرة: مؤسسة مرتضى مصر للكتاب العراقي،.
٢٢. خلدون، ع. أ. (١٩٨٧). المقدمة. بيروت: دار القلم.
٢٣. دواح، ب. خ. (٢٠١٩). التسامح الديني وأثره على التعايش السلمي في المجتمع العراقي.

٢٤. ديلو، س. م. (٢٠٠٨). التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني. (ت. ف. خليفة، Trans.) القاهرة: مكتبة مدبولي.
٢٥. رشيد، م. (٢٠٢٠). التعايش السياسي؛ جدلية التعايش والاندماج والهوية. In م. ش. أوغلو، التعايش وأشكاله من منظور العلوم الإنسانية (pp. ٧٩-١٨). أنقرة: سوناتا للنشر.
٢٦. زمزمي، ي. (١٩٩٤). الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة. دار التراث.
٢٧. شيخو، ر. (٢٠٢٠). التعايش والتسامح الديني: رؤية تاريخية من خلال نماذج إسلامية. In م. ش. أوغلو، التعايش وأشكاله من منظور العلوم الإنسانية. (pp. 38-78) أنقرة: سوناتا للنشر.
٢٨. عجبك، ب. د. (٢٠٠٧). الحوار الإسلامي المسيحي. دار قتيبة للطباعة والنشر.
٢٩. علي، س. ا. (٢٠٢٠). الهوية الثقافية السورية بين (التعايش والصراع) في مرحلة (الثورة-الحرب) ٢٠٢٠-٢٠١٢. In م. ش. أوغلو، التعايش وأشكاله من منظور العلوم الإنسانية. (pp. 4-35) أنقرة.
٣٠. علي، ي. (٢٠٠٦). مفهوم التسامح بين الإسلام والغرب. طرابلس: دار الدعوة الإسلامية للنشر.
٣١. لوك، ج. (٢٠٠٦). رسالة في التسامح. (ت. و. بدوي، Trans.) بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين.
٣٢. معلوف، ل. (١٤٢٣هـ). قاموس المنجد في اللغة (Vol. ١). الطبعة الرابعة). بدون مكان.
٣٣. معمر، ف. ب. (٢٠١٧). التعايش... خيارنا من أجل المستقبل. الرأي.
٣٤. ميناو، ا. ت. (٢٠٠٦). تخيل التعايش معاً: تجديد الإنسانية بعد الصراع الاثني العنيف. (ف. السروجي، Trans.) عمان، [الأردن]: الأهلية للنشر والتوزيع.
٣٥. نصر، ا. و. (١٢٧٠هـ جري). القاموس المحيط. اليند : مطبعة بولاق.
٣٦. وطفة، ع. ا. (٢٠٠٥). التربية على قيم التسامح، . مجلة التسامح، العدد ١١، ص ٢١٣.